واحدية الحق وتعددية الخلق

عَلاء الدِّين حسَن
كاتب وباحث سوري
aladin.hasan@gmail.com

إنَّ وحدانيَّة الخالق (عزوجل)، وتعدديَّة الخلق، هو أصل التَّصوُّر .. فالله هو الواحد الأحد، وما سوى الله متعدِّد .. الله واحد في ذاته، واحد في صفاته، أي أنَّه (سبحَانه) اتّصف بأعلى وأكمل الصفات، ولا يشابهه فيها أحد، فهو عالِم محيط بعلمه الأشياء، ليس كعِلم المخلوق، وهو رحيم وليس لرحمته حدود: ﴿لَيسَ كَمثلِهِ شَيء وَهوَ السَّميعُ البَصير﴾ الشُّورى:١١. والله واحد في أفعاله، لا يشاركه فيها أحد.

ولو تعدَّدت الآلهة، لأدَّى ذلك قطعاً إلى فساد الكون، لتعدُّد الأنظمة المتعارضة المتعدّدة، الّتي تحاول تسييره بحسب أنظمتها. ولا يحدث شيء في ملك الله إلاّ ما يريده: ﴿إنَّما أَمرُه إذَا أرادَ شَيئاً أَن يقولَ لهُ كُن فَيكُون﴾ يس:٨٢. ولله ملك السَّموات والأرض، والله على كلِّ شيء قدير.

ولقد كان التَّفكيرُ الإسلاميُّ في عهد رسول الله (صلى الله عليه وسلم) يقوم على التَّأكيد على أصول العقيدة وأركانها، وكانت الآيات المكيَّة خاصَّة تؤكِّد على هذا الجانب، فجاءت بالأدلَّة القاطعة المثبتة لوحدانيَّة الله، وكمال ألوهيّته، وبيَّنت بطلان الشِّرك والأنداد. أي أنَّ القرآن الكريم قد أثبت العقائد الدِّينيَّة المتعلّقة بذات الإله وصفاته وأفعاله، وأقام عليها الأدلَّة والبراهين، وحمل على عقائد المخالفين بالحجَّة الدَّامغة، وخاطب العقل، واستنهض الفكر، وعرض نظام الأكوان، وما فيها مِن الإحكام والإتقان على أنظار العقول، طالباً بالإمعان فيها، لتصل بذلك إلى اليقين بصِحَّة ما جاء به ودعا إليه (*) .

والله هو الخالق وحده، وهو المحيي والمميت، ولا يستعان بسواه: ((إذَا استَعنتَ فَاستعنْ بالله، وَإذَا سَألتَ فَاسأل الله، وَاعلمْ أنَّ الأمَّةَ لَو اجتَمعتْ علَى أَن ينفعوكَ بِشيءٍ لَمْ يَنفعوكَ إلاّ بِشيءٍ قَدْ كَتبهُ الله لَك، وَلَو اجتَمعتْ علَى أَن يضرُّوكَ بِشيءٍ لَمْ يَضرُّوكَ إلاّ بِشيءٍ قدْ كَتبهُ الله علَيك..)) (١). وفي فاتحة الكتاب: ﴿إيَّاكَ نعبُدُ وَإيَّاكَ نَستَعين﴾ الفَاتحة : ٥.

وكلمة التَّوحيد دالّة على نوعَي التَّوحيد: توحيد الرّبوبيَّة، وتوحيد الألوهيَّة. أمَّا توحيد الرّبوبيَّة، فهو الإقرار بأنَّ الله خالق كلّ شيء (٢)، وأمَّا توحيد الألوهيَّة، فهو استحقاقه سبحَانه وَتعَالى أن يُعبَد وحده لا شريك له (٣).

دَعوةُ الأنبيَاءِ وَالمرْسَلين :

والتَّوحيد هو دعوة الأنبياء والمرسلين عليهم الصَّلاة وَالسَّلام: ﴿وَلَقدْ بَعثنَا فِي كلِّ أمَّة رسولاً أن اعبُدوا الله وَاجتَنبوا الطَّاغوت..﴾ النَّحل: ٣٦.

والطَّاغوت هو كلُّ ما يُعبَد مِن دون الله، سواء كان مِن البشر، أو مِن الأفلاك، أو مِن الحيوان.. فلا عبادة إلا لله، ذلك ليعيش النَّاس أحراراً متساوين. ولا يمكن لأحد أن يبلغ جماليَّة الحرية إن لم تكن العبادة لله وحده، والحريَّة حياة وقوَّة، تنطلق إلى ضياء الفكر والخطوات، وحيثما توفَّر احترام الحريَّة، توفَّر احترام العقل، واحترام الحريَّة فعل يعبِّر عن الجمال.. أمام عرش الحريَّة تتسامق الأشجار بمداعبة النَّسيم، وفي فضائها تسكب الأزهار عطرها.

ولمَّا كان مفتاح الدَّعوة الإلهيَّة معرفة الله تعَالى، قال أفضل الدَّاعين (عليهِ الصَّلاة وَالسَّلام)، لمعاذ (رضيَ الله عَنه)، وقد أرسله إلى اليمن: ((إنَّك سَتأتي قوماً مِن أَهلِ الكتَاب، فليَكن أوَّل مَا تَدعوهُم إليه: شَهادة ألاّ إلهَ إلاّ الله، وَأنَّ محمَّداً رسولُ الله، فإنْ عَرفوا ذلكَ فَأخبرهُم أنَّ الله فرضَ عَليهِم خمسَ صَلواتٍ فِي اليَومِ وَاللَّيلة))(٤).

تَعدديَّة الخلْق :

فإذا وقفنا عند الخلق، وجدنا التَّعدّديَّة العرقيَّة، ووجدنا التَّعدّديَّة اللّغويَّة، ووجدنا التَّعدّديَّة الدِّينيَّة، والتَّعدّديَّة الثَّقافيَّة، والتَّعدّديَّة الحزبيَّة، والتَّعدّديَّة القيميَّة.. وكلّ هذه التَّعدّديات شرعها الله عزَّ وَجلَّ، وينبغي أن ندرك هذه الحقيقة. يقول الله عزَّ وَجلَّ: ﴿وَمنْ آياتهِ خلقُ السَّمواتِ والأرضِ واختلافُ ألسنتِكم وَألوانِكم إنَّ فِي ذلكَ لآياتٍ للعالِمين﴾ الرُّوم : ٢٢ . ويقول عزَّ وَجلَّ : ﴿وَمَا أَرسلنَا مِن رسولٍ إلّا بِلسانِ قَومهِ ليبيِّن لهمْ﴾إبرَاهيم : ٤ .

ويقول عزَّ وَجلَّ: ﴿ يَا أيُّها النَّاسُ إنَّا خَلقناكُم منْ ذكرٍ وَأنثَى وَجَعلناكُم شُعوباً وَقَبائلَ لتَعارَفُوا إنَّ أكرمَكم عندَ الله

أتقَاكم..﴾الحجُرات : ١٣. خلقناكم مِن آدم وحوَّاء.. خلقناكم مِن رجل وامرأة.. وجعلناكم عروقاً وأجناساً، ليتعرَّف بعضكم إلى بعض، وليتعاون بعضكم مع بعض: ﴿إنَّ أكرمَكم عندَ الله أتقَاكم ﴾.

ولم يقل الله عزَّ وَجلَّ: إنَّ أكرمكم عند الله أغناكم، ولا غير ذلك.. فمقياس التَّفاضل عند الله ـ يوم القيامة، لا في هذه الدُّنيا ـ هو التَّقوى.. فليس في هذه الدُّنيا مقياس نقيس به درجة التَّقوى عند البشر. ولذلك قال الله تعَالى: ﴿إنَّ أَكرمَكم عندَ الله أتقَاكُم إنَّ الله عَليمٌ خَبير ﴾، عليم بشؤون خلقه، خبير بما في قلوبهم وصدورهم.

وفي حجَّة الوداع أعلن الرَّسول (صلَّى الله عليهِ وَسلَّم)، في خطبة عصماء، أنَّ النَّاس جميعاً متساوون كأسنان المشط: ((إنَّ ربَّكم وَاحد وَإنَّ أباكُم وَاحد، كلُّكم لآدمَ وَآدمُ مِن تُراب.. لاَ فضلَ لعربيّ علَى عجميّ، وَلاَ لأبيضَ علَى أسوَد، إلاّ بالتَّقوى..)) (٥).

فليس هناك أفضليَّة لجنس على آخر، كما يدَّعي اليهود بأنَّهم شعب الله المختار، أو كما ادَّعى (هتلر) بأنَّ الجنس الآريّ يجب أن يحكم العالم، أو كما اعتقد بعض فلاسفة الإغريق بأنَّ هناك شعباً خُلق ليسود ويقود ويحكم، وشعوباً خُلقت لتُساد وتُقاد وتُحكَم.. أو كما اعتقد بعض الحداثويّين بأنَّ هناك عبيد وهناك سادة .. وكلّ هذه التَّصوّرات خاطئة، فالإنسان –أيَّاً كان– فهو مكرَّم مِن حيث أصل الوجود الإنسانيّ: ﴿وَلقدْ كرَّمنا بَني آدَم ..﴾الإسرَاء : ٧٠. ولكنَّهم يتفاوتون بالعِلم والعمل والمجاهدة.. يقول الله عزَّ وَجلَّ: ﴿قُل هَل يَستوي الَّذينَ يعلمُونَ وَالَّذينَ لاَ يعلمونَ إنَّما يَتذكَّر أولُو الألبَاب ﴾الزُّمَر : ٩.

التعدّديَّة الدِّينية:

وأعطى الله تعالى الإنسان ملكات ومواهب ليختار لنفسه: ﴿ فَمنْ شَاءَ فَليؤمنْ وَمنْ شَاءَ فَليكفرْ إنَّا أعتدَنا للظَّالمين نَاراً﴾الكهْف : ٢٩.

ويقول عزَّ مِن قائل: ﴿وَلَو شَاءَ ربُّك لجَعلَ النَّاسَ أمَّة وَاحدة وَلاَ يَزالونَ مختلِفين إلاّ مِن رحِم ربُّك وَلِذلكَ خلَقهُم ﴾ هُود : ١١٨ ــ ١١٩. أي: للاختلاف خلقهم: ﴿وَلَو شَاءَ ربُّك لآمنَ مَن فِي الأرض كلُّهم جميعاً أَفأَنتَ تُكرهُ النَّاس حتَّى يَكونوا مُؤمنين﴾ يونُس: ٩٩. وفي آية أخرى: ﴿أَنلزمكمُوها وأنتُم لَها كَارهون﴾ هُود: ٢٨. أنرغمكم على الهداية ؟.. ﴿لاَ إكراهَ في الدِّين قَد تبيَّن الرُّشدُ مِن الغيِّ فمَن يكفرْ بالطَّاغوتِ وَيُؤمنْ بالله فَقد استَمسكَ بِالعروةِ الوثقَى..﴾ البقَرة: ٢٥٦.

ونجد سورة (الكافِرون) قد جمعت بين جانبين: الاعتزاز بالدِّين إلى أبعد حدّ،

والمسامحة مع المخالف إلى أقصى درجة.. ﴿قُل يَا أَيُّها الكافِرون، لاَ أعبُدُ مَا تعبُدون، وَلاَ أنتُم عَابِدون مَا أعبُد..﴾.. إلى أن قال الله عزَّ وَجلَّ ﴿لكمْ دِينكُم وَليَ دِين﴾، فالأديان تعدَّدت، وخُتمت بدِين الإسلام: ﴿اليَومَ أكملتُ لكمْ دينَكم وَأتممتُ عليْكم نِعمَتي وَرضِيتُ لكمُ الإسلامَ دِيناً﴾المائدة: ٣.

والنَّاس آمنوا أو كفروا فحسابهم عند الله في الآخرة: ﴿الله يحكمُ بَينكُم يَومَ القيَامة فيمَا كنتُم فيهِ تَختلِفون﴾الحجّ : ٦٩.

أدلّة حريَّة العقيدَة :

وممَّا يدلّ على حريَّة العقيدة في: أنَّ مهمة الرُّسل ـ عليهم الصَّلاة وَالسَّلام ـ تمثَّلت في التَّبشير والإنذار والتَّبليغ، ولم تتمثَّل في القهر والتَّسلُّط: ﴿فَذكِّر إنَّما أنتَ مُذكِّر لَستَ عَليهم بمصَيطر ﴾الغاشية: ٢١ ــ ٢٢. فالإجبار لا يعمِّق القناعة في القلوب.

وممَّا يدلُّ على حريَّة العقيدة أيضاً: المعايشة السّلميَّة لأهل الشَّرائع. قال تعَالى: ﴿لاَ ينهاكمُ الله عنِ الَّذينَ لمْ يُقاتلوكُم فِي الدِّين وَلَمْ يخرجُوكم مِن دياركم أنْ تَبرُّوهم وَتُقسِطوا إليهِم إنَّ الله يحبُّ المقسِطين﴾الممتحنَة: ٨.

التَّعدّديَّة القيميّة وَالفكريَّة :

وهذه التَّعدّديَّة اتِّجاه ذو تأثير بالغ في الفلسفة الأخلاقيَّة المعاصرة، حيث يؤكّد على مكانة القيم في الحياة الإنسانيَّة، جاعلاً منها مقوّمات معنويَّة هادفة، على أنَّ أهمّ خاصيَّة تتميَّز بها التَّعدّديَّة القيميَّة هي أنَّ القيم الأساسيَّة الَّتي ترتكز عليها الحياة تكون متنازعة فيما بينها، بسبب الاعوجاج في الاستدلالات.

أمَّا الظُّروف الموضوعيَّة، الَّتي تلازمت مع التَّعدّديَّة القيميَّة، فمنشؤها: التَّعارض بين الدِّين والعقل، واتِّساع رقعة اللّيبراليَّة (٦)، وصدام الحضارات.

وقَبِلَ الإسلام التَّعدّديَّة الفكريَّة والتَّنوُّع الفكريّ، وأرسى مرتكزات هذه التَّعدّديَّة بوضوح، واحترم الخصوصيَّة الثَّقافيَّة والبيئيَّة لمجمل المجتمعات، بحيث أتاحت هذه التَّعدّديَّة مرونة اجتماعيَّة حفظت حضارتنا مِن الصِّدام والانهيار. والإسلام بطبيعته دِين يستوعب مختلف الثَّقافات، فالتَّعدّديَّة الفكريَّة ليست نتاج مشروع عولمي، وإنَّما هي أصالة ثابتة في حضارتنا، فالقرآن الكريم الَّذي هو أصل الأصول، ومرتكز بناء، هذا الكتاب العظيم تعدَّدت أحرفه، وطرائق قراءته.. أنزله الله عزَّ وَجلَّ على سبعة أحرف لقبول تعدّد اللّفظ، الَّذي يعبِّر عنه علّام القراءات، بأنَّ مواضع الاختلاف بين الأحرف السَّبع، هي: الإفراد والتَّثنية والجمع والتَّذكير والتَّأنيث – اختلاف تصريف الأفعال مِن ماض ومضارع وأمر – اختلاف وجوه الإعراب – اختلاف

بـالنَّقص والزيـادة – الاخـتلاف بالتَّقـديم والتَّأخير – الاخـتلاف بالإبـدال – اخـتلاف اللُّهجـات كـالفتح والإمالـة والتَّفخـيم والتَّرقيق(٧).

واحـترام اللُّهجـات هـو احـترام بـيِّن للخصوصيَّة الثَّقافيَّة لكلِّ قبيلة، حيث لم يكن انتشـار القـرآن تصـديراً لثقافـة البيئـة، ولا للهجتها، رغم شمولها وتوسّطها، وإنَّما أقرَّ الإسلام أنَّه يمكن لكلِّ قبيلة أن تقرأ باللّهجة الَّتي تتقن. ولعلَّ سبب الـورود علـى أحـرف سبعة، هو التَّخفيف علـى الأمَّـة رحمـة بهـا، وخصوصيَّة لمكانتها.

وكلُّ الأحرف نزل بها الـوحي الأمـين علـى رسـول الله (عليـهِ الصَّـلاة وَالسَّـلام)، وتلقَّاها القرَّاء فنشروها في الأمصار. جـاء في الحديث: ((.. إنَّ القُـرآنَ نـزلَ علَـى سَـبعةِ أحرُف، فَاقرؤوا مَا تَيسَّر مِنه)) (٨).

– ومِن معالم قبول الاخـتلاف في الفهـم والتَّطبيق: حادثة بني قريظـة المعروفـة، حيـث قال رسول الله (صلَّى الله عليهِ وَسـلَّم): ((لاَ يُصلينَّ أحدٌ العَصرَ إلّا فِي بَني قرَيظـة)) (٩). فاختلف الصَّحابة (رضـيَ الله عـنهُم) وقوفـاً عنـد هـذا الحـديث، فمـنهم مَـن صـلَّى في الطَّريق، ومنهم مَن صلَّى بعد وصوله إلى بـني قريظـة. والثَّابـت مِـن توجيـه النَّبـيِّ (عليـهِ الصَّلاة وَالسَّلام) أنَّه أقـرَّ رأي الفـريقين دون أرجحيَّـة رأي علـى آخـر. وإذا كـان (ابـن القيِّم) قد رجَّح اجتهـاد طـرف علـى آخـر (١٠)، فإنَّ ذلك محض رؤيـة ذاتيـَّة، ولـيس حجَّـة قطعيَّة بالضَّرورة.

في كلِّ حال، نلحظ في الحادثـة: قبـول أفهـام وتفسـيرات متعـدّدة للـنَّصِّ الواحـد، وعدم إنكار الاختلاف الَّذي يحتملـه الـنَّصّ، والثَّابـت أنَّ كـلَّ فئـة فهمـت نـصّ حـديث الرَّسول الكريم بصورة تستوعب تعدُّد أوجه الفهـم، ولم يسـتخدم أيّ الطَّـرفين وسـائل حجب الآخر مِن حقِّ الاجتهاد. لقـد فهمـوا جميعاً أنَّ المقصد هـو التَّعجُّـل بمحاصـرة بـني قريظة دون تبـاطؤ، فتحرَّكـوا بمقتضـى هـذا الهدف المركزيّ، كلٌّ وفق رؤاه، ولـو ذهـب بعضـهم راكبـاً وبعضـهم ماشـياً وبعضـهم مهرولاً، فذلك كلّه لم يحدّده نصّ الحديث.

– هذا وقد اختلف الصَّـحابة رضـيَ الله عنهُم في التَّأويـل والفتـوى: اخـتلاف تنـوّع وليس اختلاف تضادّ (١١)، ذلك أنَّ التنوّع سمة أساس مِن سمات البشر، والإسلام لم يلـغِ هـذا التَّنـوّع، ولم يصـادره، ولم يحجـر علـى العقول في التَّفسير والاستدلال، حتَّـى عرفنـا للصَّحابة مدارس واضـحة، فقـد عرفنـا عـن (ابن عبَّاس) رخصه، وعرفنا عن (ابـن عمـر) شدائده، ولكنَّ القلوب ما اختلفـت، فكـانوا إذا التقوا تعانقوا، ولم تتأثَّر أخوَّتهم بـاختلاف اجتهاداتهم، ولم يوقع تعدُّد الرؤى شـيئاً مِـن الشَّحناء، بل السَّماحة وسعة الصَّـدر كانـت

ميـزة الجميـع، وكـان لقـاؤهم علـى نقلـة اجتماعيَّـة واحـدة، لا يقبلـون بالقولبـة في قوالب جامدة، بل تنوَّعـت آراؤهـم، وذلـك شكّل لديهم مزيداً مِـن قـوَّة وتعاضـد، دون زعزعة ولا تنازع، وكذا لابدَّ للبناء الشَّـامخ مِن وجود فواصـل تمـدّد، وفواصـل هبـوط، تسمح بحريَّة الحركة عند الاهتزازات. والبناء المتماسك إن لم يتَّصف بهذه المرونـة، لاشـكَّ أنَّه ينهار مع أوَّل هزَّة أو زلزلة.

إنَّ هـدف الاجتهـاد هـو الوصـول إلى الحقّ، ولا يجوز أن يكون انتصاراً للـرَّأي، أو تعصُّباً للمذهب. ولهـذا ورد عـن السَّـابقين: "إذا صحَّ الحديث فهو مذهبـي". وأيَّـاً كانت حاجة (يعقوب) مِـن توجيـه: ﴿ادخلـوا مـن أبواب متفرِّقـة﴾" فـإنَّ الإشـارة واضـحة إلى التَّوحُّـد علـى الهـدف، مـع تعـدُّد الوسـائل والأبواب والمسارات. يقول (القرطبـيّ): لئلاّ يراهم الملك، ويرى عددهم وقوَّتهم، فيبطش بهم حذراً وحسدا (١٢). ودلَّت الآية علـى ضرورة الحذر ممَّا يُخاف منه، توخيَّاً للسَّـلامة في كلِّ حال.

إنَّ فهـم الإسـلام يرسـم علـى الـدَّوام الخطوط الرَّئيسة، والملامح العامَّة، والضَّوابط الكليَّة، تاركـاً مسـاحة واسـعة للاجتهـاد في الجزئيَّـات، وهـذا المـنهج يتغلَّـب علـى البيروقراطيَّة، ويحطِّم فرضيَّة الجمود.

التَّعدّديَّة السِّياسيَّة:

وكما شرع الإسلام التَّعدّديَّة الثَّقافيَّـة، فقد شرع أيضـاً التَّعدّديَّة السِّياسـيَّة، ووضـع الآليات اللاّزمة للتَّعايش السّلميّ بين مختلـف الطَّوائـف الملتقيـة في العقيـدة، المتعـدّدة في المفاهيم، وذلك بتعامل الرَّسول الكريم –بعد مقدمـه المدينـة– تعـاملاً يرتكـز علـى هـذا الأساس، حيث أرسـى تنظيمـاً إداريَّـاً يعتمـد على التَّعدُّد حتَّى مع غـير المسـلمين. وجعـل الإسـلام الشُّـورى فيصـلاً لمجمـل المسـائل: ﴿وأمرُهم شُورى بَينهُم ﴾الشُّورى: ٣٨، أي أنَّ إمارة المسلمين قائمة علـى التَّشـاور فيمـا بين بعضهم وبعض.

إلى ذلك، فالتَّعددية السِّياسيَّة ثروة مِـن الأفكار والأعراف والأذواق، عرف الإسـلام كيـف ينظِّمهـا، ويجعلـها أولى لبنـات بنيتـه الصَّـالحة، بغيـة التَّوصُّـل للغايـات المتلخّصـة لوحدة الأمَّـة، ومنحها العقل الجمعيّ، لتكون أقدر على القيـام بـدورها، وفـق تنـوُّع مـرن يستوعب العوامل المتشابكة، في تناسق أصيل، ومنهجيَّة حقَّة.

ودعـا الإسـلام إلى حريَّـة التَّعـبير عـن الرَّأي. يقول صدّيق الأمَّة (رضـيَ الله عَنـه): "إن أحسـنت فـأعينوني، وإن أسـأت فقوِّموني". ويقول أيضاً: "أطيعوني ما أطعت الله فيكم، فإن عصيته فلا طاعـة لي عليكم". ويقـول الفـاروق (رضـيَ الله عَنـه):

"مَـن رأى مـنكم فيّ اعوجاجـاً فليقوّمـني". ولقد قال مَن قال: لو رأينا فيك اعوجاجاً يـا ابن الخطّاب، لقوَّمناه بسـيوفنا. فقـال عمـر: "الحمد لله الّذي جعل في المسلمين مَـن يقـوِّم اعوجاج عمر بحدِّ سيفه".

ويقول (رضي الله عنـه): "متـى تعبـدّتم النَّاس وقد ولدتهم أمَّهاتهم أحرارا". فالحريَّـة حقٌّ وعدل، وبالعدل نحقّق الغايات السَّـامية، والمقاصد الكريمة. ولن يكون للإنسـان شـأن إلا بالحريَّـة.. وعندما يلتئم صوت الحريَّة مـع ضمير الأرض تولد الكلمـات.

* هكـذا تترسَّـخ في أعماقنـا وحدانيَّـة الخالق، وتعدّديَّة الخلـق: فـالله واحـد أحـد، والخلق متعـدّد. وتعدّديَّـة الخلـق إنَّمـا تعـني التَّوازن والاستقرار واستدامة الحياة. ومنذ أن خلـق الله (آدم)، خلـق لـه زوجـة ليسـكن إليهـا، وتسكن إليه.

وفي قصَّـة الطّوفـان يقـول الله (عـزَّ وَجلَّ) مخاطباً نبيَّه نوحاً (عليه السلام): ﴿قُلنَا احمِلْ فيهَا منْ كلٍّ زَوجَين اثنَين﴾ هُـود: ٤٠.

وتشير الإحصاءات إلى التَّسـاوي بـين نسبة الذُّكور والإنـاث في معظـم الكائنـات، وهـذا يرجـع إلى الصِّـبغيَّات (chromosomes) الّـتي تبـيِّن تعـدّديَّة الخـلق.

وكم كـان الإنسـان ظالمـاً في جاهليّتـه عندمـا غاب عن عقله سرُّ الله في خلقه، فراح يئـد البنـات دونمـا رحـمة ولا رأفـة: ﴿وَإذَا المـوءودةُ سـئلت بـأيِّ ذَنـبٍ قُتلتْ﴾التَّكوير: ٨ ــ ٩. فمشـيئة الله تعـالَى هي وحـدها تـتحكّم بمـنح هـذا النَّـوع، أو غيره: ﴿يهَبُ لمَن يشاءُ إناثاً وَيهَب لمَـن يشـاءُ الـذُّكور ﴾الشُّـورى : ٤٩. وفـي عـالم النَّبـات، نقـرأ قـول الله عزَّ وَجـلَّ: ﴿وَأنبتتْ مـنْ كلِّ زَوجٍ بَهيـج ﴾الحجّ : ٥.

ومِن البديهيّ أنَّ تميُّز الأشـياء لا يكـون إلاّ بإظهار أضدادها: فاللّيـل يُعـرَف بالنَّهـار، والشّحنة السَّالبة تُعـرَف بنقيضـتها الموجبـة، والفعل يُعرَف بـردِّ الفعـل، وفي الـذَّرَّة نجـد البروتون والإلكترون، ولكلِّ ميزان كفَّتان.

والشّـمال يقابلـه الجنـوب، والشُّـروق يقابله الغروب، وفـي البحر ماء عذب، وملح أُجاج. وفي الجانب الرُّوحي: الحيـاة مقابـل الموت، والهدى مقابل الضَّـلال، والتَّشـديد مقابل المغفرة.

وقد أحسـن مَن قال (١٣):

الوَجهُ مِثـلُ الصّبـحِ مبيضٌّ
والشَّـعرُ مِثلُ اللّيلِ مسـودُّ
ضدَّانِ إذَا استجمعَا حسُنا
وَالضِّـدُّ يُظهرُ حُسنَه الضِّـدُّ

خاتـمَة:

وهكـذا يتَّضـح: أنَّ قضـيَّة الألوهيَّـة والوحدانيَّـة قـد شـغلت الفكـر الإنسانـيّ، قديـماً وحديثاً، ولا زالت هذه القضيَّة تشغل

ذلك الفكر، ولا تزال الدِّراسات والبحوث حول هذه القضيَّة على أشدّها، لمعرفة أسرار الكون، وعجائبه، ودقّة قوانينه ونظمه، الّتي تقود للإيمان بوجود إله واحد خالق مبدع، وعبادته وحده، ونبذ عبادة الوثنيَّة.

وكان للفلسفة الإسلاميَّة دور واضح في إثبات العقيدة الإيمانيَّة، حين جابهت التّيّارات الفكريَّة والفلسفات الّتي حاولت الطّعن في أصول العقيدة.

وكان للمنهج النَّفسيّ والعقليّ الأثر الأكبر في إحقاق حقّ التَّوحيد، وإقناع كثير مِن رؤوس الباطل، في عهد النُّبوَّة، بتوحيد الله عزَّ وَجلَّ، في ظلّ فترة زمنيَّة قصيرة، سرعان ما تحوَّلت بعدها أرض الجزيرة العربيَّة إلى موطن للتَّوحيد، بل إلى منطلق للدَّعوة إليه.

"والقرآن الكريم اشتمل على مناهج في الاستدلال، والجدل، والتَّأثير، تكشف عن أدقّ نواميس النَّفس الإنسانيَّة.. وفي مناهجه البيانيَّة المثل الأعلى للكلام النَّافذ إلى القلوب، والحجج الدَّامغة"(١٤).

أخيراً: مِن حقّ الحقّ علينا أن يكون ضالّتنا.. مِن حقّ الحقّ علينا أن نقوله، لا نخاف في الله لومة لائم.. مِن حقّ الحقّ علينا أن ننطق به، ولو على أنفسنا.. مِن حقّ الحقّ أن يضعه الإنسان في نصابه.. الحقُّ كلمة طيّبة، كشجرة طيّبة، أصلها ثابت، وفرعها في السَّماء.. مِن حقّ الحقّ أن يبقى صافياً، نقيّاً، بعيداً عن اللّبس بالباطل..

من حقّ الحقّ أن نجتمع عليه، ونعرضه في أوضح صورة، ذلك أنَّ الله هو الحقّ، وخلق السَّموات والأرض بالحقّ، وأنزل الكتاب بالحقّ، فالحقُّ مقصود الخلق، ومقصود التَّنزيل❐

الهوامش:

(*) أصول الدِّين الإسلامي، رشدي محمَّد، ط (٤)، دار الحكمة، بغداد ١٩٩٠م، ص ٣٠.

١. سنن التِّرمذي، حديث رقم ٢٥١٦، صفة القيامة ٦٦٧/٤ .

٢. العقيدة الطِّحاويَّة، ص ٢٤ .

٣. المصدر السَّابق نفسه، الصَّفحة ذاتها.

٤. رواه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب الدّعاء إلى الشَّهادتين، ٥٠/١ .

٥. رواه أحمد ٥٧٠/٦ ، والطَّبراني في الأوسط ٤٧٤٩، عن أبي سعيد الخدري .

٦. اللّيبراليَّة هي الفكر السِّياسيّ الّذي يطالب بممارسة الحريَّات، لتحقيق تصوّرات للحياة الرَّاسخة، دون تدخُّل الدَّولة، إلاّ بما يحفظ الحريَّات.

٧. انظر: التّبيان في علوم القرآن، الصَّابوني، ص ٢٢٣ وما بعد .

٨. مسند أحمد، حديث رقم ١٥٩ .

٩. ص البخاري، كتاب أبواب صلاة الخوف، باب صلاة الطّالب والمطلوب راكباً وإيماءً ... ح رقم ٩٠٤ .

١٠. انظر: زاد المعاد، ص ١٣١ وما بعد .

١١. انظر: مقدّمة في أصول التَّفسير، ص ١٠ وما بعدها .

١٢. انظر: تفسير القرطبي، ٢٢٩/٩ .

١٣. هو الشاعر: دوقلة المنبجي.

١٤. انظر: المعجزة الكبرى، د. محمَّد أبو زهرة، دار الفكر العربي، دون تاريخ، القاهرة، ص٤١١.